الصرخة

وضع يديه متشابكتين خلف رأسه، وجسده ممدد على سريره وأخذ يتأمل في سقف العنبر القديم. . بدا وكأنه غارقٌ في تفكير عميق. . .

لم يهتمَّ أن ينام مبكراً هذه الليلة، فغداً سيُرحّل من وحدته إلى منزله وسيسلم شارة الجندية التي كان دوماً يحلم بحملها ويفخر بتحمل مسؤوليّتها. . .

لقد تربَّى على ذلك منذ صغره، فأجداده من كبار رجال الدولة الذين تحملوا عبء المسؤولية في تاريخ العراق الحديث، وساهموا بأرواحهم فداءً لأرض الرافدَيْن عسكرياً وسياسياً.

لم يكن من السهل على عبد الكريم أن يسمع تعليمات قائد وحدته صباح اليوم وهو يخبره عن استغناء القوات المسلحة عن خدماته، وخاصة في تلك الأيام التي يستعد أهل العراق جميعُهم فيها لعدوان غاشم مرتقب من القوة العظمى في العالم لبسط هيمنتها على المنطقة بأسرها. . .

إنه يعلم أن في الأمر شيئاً وحتماً موضوع أخيه أشرف له علاقة

وطيدة، بسبب استغناء القوات المسلحة عن خدماته على الرغم من حسن سلوكه والتزامه الشديدَين...

لقد سُجن أخوه ظلماً واتُهم زوراً بالكفر مرة، وبالانتماء إلى جماعات دينية متطرفة تارة أخرى..

والعجيب أن كل عراقي صبياً كان أم شيخاً يعلم تماماً أن هاتين التهمتين المتناقضتين هما تهمتا من لا تهمة له... ولكن لماذا أخوه بالذات؟ هذا ما كان يحيره منذ أن قُبض عليه منذ عام تقريباً... لم يراعوا عدم ثبوت أو كفاية الأدلة... لم يراعوا تدين أشرف وحُسن خُلقه اللذين يشهد لهما القاصي والداني... لم يراعوا تاريخ عائلته المشرف، التي لم تتوان عن البذل والعطاء لأرض العراق الحبيبة... ببساطة لم يراعوا حق الله...

وها هو عبد الكريم يدفع ضريبة الظلم جزية مضاعفة بين عشية وضحاها يُحكم عليه بترك القوات المسلحة !! ومتى؟! قبيل الحرب هكذا؟!...

مرت عليه تلك الليلة كأثقل ما تكون الليالي... وأسلم نفسه لنومٍ متقطعٍ وكوابيسَ مزعجةٍ...

في الصباح استيقظ مبكراً وسلم شارته وهو يحس بظلم وجحود شديدين... ظلمٍ لأخيه وجحود له ولعائلته...

مر عليه أسبوع وهو محطم نفسياً ويتابع عن بعد أحوال الحرب المرتقبة...

وفي ليلة باردة من شتاء العراق القارس، جاءه صديقه منذ الطفولة، والذي لم يره منذ حوالي العامين...

بدت عليه مظاهر الغنى الفاحش والذي لم يكن عليه منذ عام سبق... احتار عبد الكريم في بادئ الأمر من ثراء صديقه غير المبرر، حتى علم سبب زيارته له: فقد جاء يدعوه أن يشاركه في التواطئ مع الجيش الأمريكي ضد حكومة العراق...

حاول صديقه أن يقنعه بشتى الطرق، في البداية حاول أن يقنعه أن ذلك في مصلحة العراق نفسها للتخلص من طواغيت الحكم... ثم حاول أن يتطرق إلى موضوع أشرف أخيه ومدى الظلم الذي يقع على شعب العراق وأن هذا هو أفضل وأسرع حال للتخلص من ذلك الظلم...

كلَّمه عن حال الوطن الاقتصادي المتعثر وأن الوطن في حاجة إلى من يحكمه بفكر جديد وعقلية متحضرة...

استمع عبد الكريم منه وهو رافض رفضاً قاطعاً على طول الخط، فمهما زين له صديقه ذلك التواطئ فلن يبقى في قاموسه إلا مرادفاً لكلمة الخيانة العظمى، وهو ما لا يقبله تحت أي ظرف من الظروف...

حاول صديقه أن يستقطبه لبضعة أشهر حتى اندلعت الحرب. . . . بدت المقاومة صلبةً في بادئ الأمر وظل الحال كذلك لمدة ثلاثة أسابيع إلى أن جاءت الأخبار باستسلام المقاومة وانتصار العدو. . . . .

في اليوم الثاني بعد انتهاء الحرب. . . جاءت قوات الاحتلال تقرع باب منزله وتأخذه أسيراً بحجة أنه من عناصر المقاومة. . .

وكما بدأت قصتنا تنتهي. . . تمدد عبد الكريم في زنزانته وهو يضع يديه خلف رأسه مهموماً لما وصل إليه حال الأمة. . . فأبناؤها قبل الاحتلال أسارى. . . وبعد الاحتلال أسارى. . . لا حيلة لهم ولا صريخ لهم. . . .

استمع إلى المذياع الصغير بجانبه وابتسم في يأس وهو يسمع اسم صديقه الخائن. . . . فقد اختير في مجلس الحكم. . . وأعاد التاريخ دورته. . . وندت من أعماق عبد الكريم صرخة يأس لم يسمعها إلا من ظُلم مثله ومثل أخيه أشرف. . .